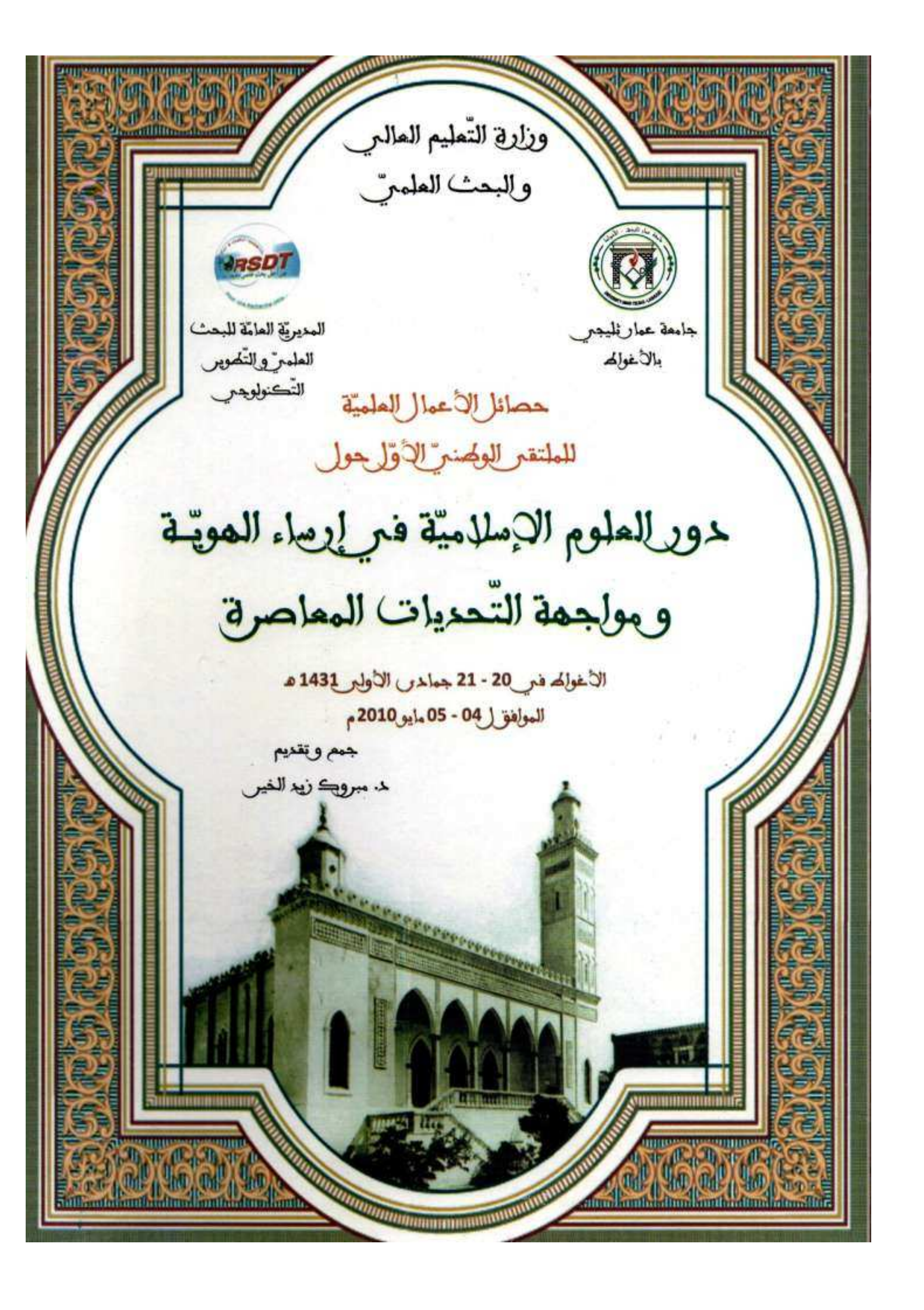


وزارة التّعليم العالي
والبحث العلميّ
RSDT
جامعة عمار ثليجي
بالأغواط
المديريّة العامّة للبحث
العلميّ والتّطوير
التّكنولوجي
حصائل الأعمال العلميّة
للملتقى الوطنيّ الأوّل حول
دور العلوم الإسلاميّة في إرساء الهويّة
ومواجهة التّحديات المعاصرة
الأغواط في 20 - 21 جمادى الأولى 1431 هـ
الموافق لـ 04 - 05 مايو 2010 م
جمع وتقديم
د. مبروك زيد الخير

# أزمة العلوم الإسلامية في واقع الأمة

**الدكتور مسعود فلوسي**

أستاذ التعليم العالي ـ جامعة باتنة

**أزمة العلوم الإسلامية من أزمة الأمة:**

مما لا يختلف بشأنه اثنان من المسلمين؛ أن الأمة المسلمة تعيش منذ عدة قرون أزمة مستحكِمَة ناءت بكلكلها على كل مرافق الحياة، وامتد تأثيرها ليشمل كافة القطاعات، وظهر بسببها الخلل في حياة المسلمين في جميع المجالات.

وقد تجلت هذه الأزمة وازدادت ظهورا بعد صعود الغرب وتقدُّمِه وسبْقِه البعيد في كل مجالات الحياة، والتفاوت الهائل الذي صار يفصل أممه وشعوبه عن هذه الأمة وشعوبها، وهو تفاوت تزداد شقته اتساعا يوما بعد يوم نتيجة حرص هذا الغرب المتطوِّر والمتحضِّر على أن تظل هذه الأمة جامدة في مكانها غير قادرة على النهوض من كبوتها من جهة، ونتيجة غياب أيِّ محاولات جادة وحقيقية لتحقيق النهضة المنتظرة والخروج من مأزق التخلف والتراجع الحضاري الذي يزداد اتساعا في واقع المسلمين من جهة ثانية.

وما دامت أزمة الأمة تصبغ كافة مجالات حياتها، وتؤثر تأثيرا عميقا على كل مكون من مكوناتها، فمن البدهي أن يكون التعليم والبحث العلمي مما يتأثر بهذه الأزمة العامة ويصطبغ بصبغتها، بل من الطبيعي أن يكون هذا القطاع أكثر تأثرا بالأزمة من غيره في واقع المسلمين، باعتبار أن هذا القطاع هو الذي من شأنه أن يتحقق من خلاله نهوض الأمة إذا ما أدى وظيفته المرجوة منه.

إن المعروف من واقع التعليم في العالم الإسلامي، أنه -نتيجة التأثر بالتوجه الغربي- تم تقسيم التعليم إلى ديني ومدني، وهذا هو المظهر الأول من مظاهر أزمة التعليم في واقع الأمة حين فُصِلَ فيه بين القيم الدينية والتوجه الدنيوي، قصدا إلى إحداث الشعور بانفصال الدين عن الحياة وعدم أحقيته في حكمها أو توجيهها، وقصدا كذلك إلى جعل العلوم التي تتناول المسائل الدينية علوما منقطعة عن الحياة بعيدة عن الواقع، مشتغلة بدراسة المسائل بأسلوب تاريخي بحت، دون أن يكون لهذه الدراسة علاقة بسلوك الإنسان وتعامله مع الواقع وأهدافه في الحياة. وهذا هو بالفعل ما أصبح يعتقده كثير من المنتمين إلى الإسلام شكلا ومظهرا وإلى الغرب روحا وعقلا.

**العلوم الإسلامية وخصوصيتها:**

والعلوم الإسلامية، التي تسمى كذلك بالعلوم الدينية أو العلوم الشرعية تمييزا لها عن غيرها من العلوم التي تتناول بالدراسة مظاهر الحياة ومكوناتها المادية، هي تلك العلوم التي تدرس مسائل الشرع وأحكامه في مختلف جوانب الحياة، وتسعى إلى تحقيق الفهم الصحيح للشرع والعمل الصحيح بأحكامه.

وقد سميت بالعلوم الإسلامية باعتبارها مرتبطة بالإسلام دون غيره، منهجا وغاية ومصادر.

وسميت بالعلوم الشرعية، لأن مدارها حول الشريعة في مصدرها وأدلتها ومداركها وأحكامها.

كما سميت بالعلوم الدينية أو علوم الدين لأنها تدور حول الخطاب أو النص الديني، من كتاب أو سنة، في جميع موضوعاتها تفاصيلها.

هذه العلوم -كما هو معروف وثابت- بدأت علما واحدا، ثم -نتيجة توسع مجالات دراستها وكثرة القضايا التي تتناولها- انقسمت وتفرعت إلى عدة علوم، يأتي على رأسها: علم العقيدة أو التوحيد، وتفسير القرآن والعلوم الخادمة له، وعلم الحديث والعلوم الخادمة له، وعلم الفقه وأصوله والعلوم المتفرعة عنهما، وعلم السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وغيرها.

ودراسة هذه العلوم ظلت عبر التاريخ الإسلامي تتم في المساجد والمدارس الملحقة بها، حتى ظهرت الجامعات الحديثة فانتقلت دراسة هذه العلوم إليها، مع بقائها تدرس في الجوامع والمدارس الملحقة بها في بلدان إسلامية عدة. لكن، نتيجة دخول العلوم الإسلامية ضمن إطار التعليم الجامعي وخضوع تدريسها والبحث فيها لمعطيات الوسط الأكاديمي، فقد كان لهذا التلاقي تأثيره على واقع هذه العلوم وطريقة دراستها ومناهج البحث فيها.

وإذا ما أردنا أن نوجز ونمضي إلى صلب الموضوع مباشرة، فإننا نقول: إن العلوم الإسلامية في واقعها الحالي تعيش أزمة حقيقية، تمنع فعاليتها وتعوقها عن تحقيق المراد من دراستها والبحث فيها، وتجعل منها مجرد علوم تُدْرَسُ لأجل الدراسة، دون أن يكون هناك غاية مقصودة أو هدف محدد من وراء هذه الدراسة.

**مظاهر أزمة العلوم الإسلامية في واقع الأمة:**

وتتجلى هذه الأزمة في جملة مظاهر، نوجز القول في كل منها، فيما يلي:

**١- انفصالها عن وظيفتها وغياب البعد المقصدي في دراستها:**

الوظيفة الأولى التي نشأت العلوم الإسلامية لأجل تحقيقها في واقع حياة الأمة وفئاتها وأفرادها، هي خدمة الوحي بقسميه؛ المتلو وهو القرآن الكريم، وغير المتلو وهو السنة النبوية الشريفة، وذلك بتيسير فهمهما والتمكين من الاستنباط الصحيح لأحكام الله عز وجل منهما للعمل بها تحقيقا لمرضاته سبحانه وتعالى.

وهذه العلوم تظل ذات قيمة ما دامت تحقق هذه الوظيفة، فإذا حيد بها عنها وأصبحت علوما تدرس لغرض الدراسة فحسب، تكون قد فقدت مبرر وجودها وأصبحت تؤدي إلى عكس ما وجدت له أصلا.

والناظر المتمعن في واقع دراسة العلوم الإسلامية والبحث فيها، يلاحظ -دون جهد كبير- أنها تُدرس دراسة تجريدية، دون أن يكون هناك غاية معينة ولا أهداف محددة يُرجى تحقيقها من وراء هذه الدراسة.

فالغاية من دراستها هي الحصول على الشهادة، تماما كما هو الحال بالنسبة لدراسة غيرها من العلوم، والبحث العلمي الأكاديمي في العلوم الشرعية، ليس له في الحقيقة والواقع من هدف سوى أن يكون وسيلة للحصول على الشهادات العلمية والترقي في مراتب الوظائف الجامعية أو الإدارية، وما يتبع ذلك من زيادة في الأجور والرواتب، فحسب.

وهذا ما يجعل الدارس لهذه العلوم لا يصطبغ بروحها ولا يظهر في سلوكه أو تصرفاته أنه يدرس علوما متميزة مرتبطة في أصل منشئها بالوحي، والقصد الأول منها أن يتقرب الإنسان أكثر فأكثر من ربه عز وجل.

والأدهى والأمر أن تجد من يدرس هذه العلوم وهو لا يؤمن أصلا بجدوى دراستها، بل تجد حتى من يسرق الجهود العلمية لغيره وينتحلها لنفسه ليحصل بها على شهادة جامعية، أو يترقى بها في مراتب الأستاذية. وهو ما يعني أن ما درسه من مفاهيم ومعارف إسلامية لم يؤثر في سلوكه ولم يسهم في إصلاح خُلُقِه، مع أن المنطق يقتضي أن يكون هو أول المتأثرين بما يدرس حتى يكون قدوة لغيره عندما يُبَلغُهم ما درسه وتعلمه.

**٢- الانفصال عن بعضها وعدم التكامل في دراستها:**

من مظاهر أزمة العلوم الإسلامية أيضا؛ انفصالها عن بعضها وانقطاع جسور التواصل وحبال التكامل فيما بينها، فأصبح كلٌّ منها علما مستقلا بنفسه لا رابط يجمعه بغيره من العلوم الإسلامية الأخرى، حتى وجدنا من يدعي التخصص في نوع منها دون أن يكون لديه أدنى معرفة ببقية الأنواع الأخرى.

وهذا يناقض أصل هذه العلوم وطبيعة منشئها، فهي إنما تكوَّنَت في البداية في صورة علم واحد مجتمع، ثم تفرعت -لغرض تيسير الدراسة والبحث- إلى علوم متعددة، دون أن يُلغي ذلك أصلَ وحدَتِها. ولكن المشاهَد في الواقع هو تكريس الانفصال بينها والتعامل معها على أنها علوم مختلفة لا باعتبارها علوما متكاملة، وهذا الانفصال ازدادت هوته اتساعا مع ظهور التخصص في العلوم الشرعية، وظهور نزعة التخصص الجزئي داخل العلم الواحد، وهو ما من شأنه أن يلغي وظيفة العلوم الإسلامية ويجعلها تفاريق ممزقة لا معارف متكاملة.

أليس من الغريب أن تجد من يتخصص في علوم الكتاب والسنة مثلا، دون أن تكون له دراسة في علم الفقه وعلم الأصول وعلم اللغة بفنونه المختلفة من نحو وصرف وبيان ومعاني وبديع؟ أو تجد من يتخصص في الفقه والأصول دون أن يتناول بالدراسة علوم القرآن والحديث واللغة؟ أو تجد من يتخصص في الدعوة الإسلامية ومناهجها دون أن يتسلح بزاد علمي متين من التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة والسيرة والتاريخ؟

**٣- الانفصال عن الواقع والإغراق في التاريخية والتجريد:**

مما هو مشاهد من واقع دراسة العلوم الإسلامية والبحث فيها؛ أنها مفصولة عن الواقع وبعيدة عن مسايرته ومواكبة التطورات التي تطرأ عليه.

مع أن الأصل في هذه العلوم أن تكون حاكمة على الواقع، بحيث تكون هي التي تقرر ما إذا كان ما يجري في الواقع صحيحا وسليما في منظور الشرع، أو غير صحيح ولا سليم. ثم هي المطلوب منها أن تصحح ما هو خاطئ من الواقع وتقوِّمَ ما هو معوجٌّ منه.

فالملاحظ أن أغلب الموضوعات التي تدرس ضمن إطار العلوم الإسلامية، يتم تناولها في سياق تاريخي صرف، حيث يجري الحديث عادة عما كان في الماضي، دون ما هو كائن اليوم أو ما سيكون في المستقبل.

وهذا البُعْدُ عن مواكبةِ الواقع ومسايَرَةِ تطوراته؛ هو الذي جعل هذه العلوم تصطبغ بالطابع التجريدي التاريخي الذي يحولها إلى علوم عقيمة لا فائدة من دراستها سوى التمرين العقلي والعمل الذهني والمعرفة التاريخية، فهي لا تختلف في هذا عن دراسة الفلسفة والمنطق وتاريخ العلوم وما في حكم ذلك.

وهو كذلك ما يجعل دارس العلوم الشرعية، يعجز عن تكوين فكرة سليمة عن أي مشكلة واقعية تواجهه أو تحدث في المجتمع الذي يعيش فيه، والنتيجة أن يعجز عن تكوين موقف شرعي سليم. ولذلك عادة ما يقف من الأحداث مواقف عشوائية ساذجة يغلب عليها رد الفعل الظرفي المتأثر بضغوط الواقع وملابساته.

**٤- الانفصال عن الحياة وعلومها وتطورها:**

العلوم الإسلامية في واقعها الحالي لا تَمُتُّ بصلة إلى الحياة وعلومها ودراساتها، فهي علوم منغلقة على ذاتها، لا تربط جسور التواصل بينها وبين غيرها من العلوم التي اعتُبِرَت علوما دنيوية مدنية لا صلة لها بالدين ولا بالدراسات المتعلقة به.

فالدارس للعلوم الإسلامية مقطوع الصلة بعلوم مهمة جدا في فهم الدين نفسه وفي القدرة على التعامل مع معطيات الحياة وتقلبات الواقع، مثل علم الفلك وعلم الأحياء وعلم الطب وغيرها من العلوم التجريبية الصرفة، وكذلك ما يسمى بالعلوم الاجتماعية والإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأناسة (الأنثربولوجيا) والتاريخ والحضارة والفلسفة والعلوم السياسية والإدارة والاقتصاد.

وهو مقطوع كذلك عن تعلم اللغات الأجنبية ذات الانتشار العالمي الواسع، وغير متمكن من استعمالها والاستفادة منها في فهم ما يُقال أو يُكتب عن الإسلام وأمته، وكذلك في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وتعريفهم به.

وهذا الانقطاع جعل دارسَ العلوم الشرعية يعيش في عصر لا يعرف عنه شيئا في كثير من الأحيان ولا يدرك أبعاد ما يجري فيه من وقائع وما يحدث فيه من تقلبات وما يمور به من تغيرات وتبدلات وما يؤثر فيه من قوى وما يحكمه من أفكار واتجاهات.

ولذلك تجد المسلمين -حكاما ومفكرين وشعوبا- مجرد منفعلين بما يجري، غير فاعلين فيه بالمرة، وهو ما يفسر سيطرة ثقافة الصدى التي يصطبغ بها واقع المسلمين المعاصرين، حيث تتوقف مهمتهم عند ردود الأفعال غير المحسوبة في كثير من الأحيان، وغير المؤثرة ولا المغيِّرَة للواقع في كل الأحيان.

**٥- غلبة الأسلوب التقليدي في دراستها وغياب التجديد:**

مما زاد في أزمة العلوم الإسلامية، وجَعَلَها علوما عقيمة لا نتيجة تُرجى من دراستها؛ غلبةُ الأسلوب التقليدي في دراستها وتدريسها والبحث فيها، وعَجْزُ القائمين عليها عن تطويرها والتجديد فيها، سواء في مضمون الدراسة أو منهجها. فما زالت العلوم الإسلامية تُدرس كما كانت تُدرس في القرن الرابع الهجري وما تلاه من قرون، وما زالت الموضوعات هي نفسها التي كانت تدرس من قديم، والبحث والتأليف في هذه العلوم يكاد لا يتجدد ولا يتطور، فالباحث يرجع إلى المصادر القديمة وحتى إلى المراجع المعاصرة [التي هي أيضا قديمة في مضمونها ومنهجها]، ويأخذ منها المعلومات ويكتفي بترتيبها وتنسيقها، دون أن يتمكن حتى من تجديد عرضها وتقديمها في أسلوب أكثر مواءمة لواقع العصر.

وأكبر مثال على عقم دراسة العلوم الإسلامية وتقليديتها؛ أن الأمثلة التي تُساق عادة لتوضيح القضايا والمصطلحات هي ذاتها الأمثلة التي نجدها في الكتب الأولى التي ألفت في فنون العلوم الإسلامية المتنوعة، فلا تجديد في العرض ولا في الأسلوب ولا في المثال.

بل إن التعريفات التي تُساق عادة لشرح المصطلحات وتوضيحها، هي عادة التعريفات التي صاغها العلماء قديما، وما تزال هذه التعريفات مصبوغة بصبغة علم الكلام أو المنطق، بحيث لا نجد أي تجديد في صياغة هذه التعريفات، ولا أدنى محاولة لتقديم تعريفات جديدة أكثر وضوحا وأكثر مُوَاءَمَة لواقع العصر.

وفي المقابل لا نجد مواقف شرعية حقيقية وواضحة من المشكلات التي يطرحها الواقع المعاصر والمفاهيم والمصطلحات السائدة فيه، فليست هناك متابعة علمية شرعية لهذه القضايا إلا على نطاق ضيق ومن خلال محاولات فردية قليلة لا تسمن ولا تغني أمام تسارع حركة الحياة المعاصرة وبروز مشكلات جديدة في حياة الناس.

وحتى في عرض مفاهيم العلوم الإسلامية على عامة المسلمين أنفسهم، لا نجد تجديدا في اللغة ولا في أسلوب العرض ولا في طريقة التبليغ، وكأن لغة الأقدمين وأساليبهم أمور مقدسة يجب التمسكُ بها وعدمُ تغييرِها، مع أن هذه اللغة وتلك الأساليب إذا كانت صالحة للعصور التي استعملت فيها أول مرة، فليس بالضرورة أن تكون صالحة لكل العصور، بل لقد أثبتت أنها غير صالحة فعلا، فلماذا التمسك بها وعدم استبدالها بما هو أكثر وفاء بالمقصود منها؟

**٦- غياب الاهتمام الرسمي بها:**

مما زاد أزمة العلوم الإسلامية استفحالا؛ غيابُ الاهتمام الرسمي بها وعدمُ العناية بتفعيلها، ولو شئنا لقلنا: إن هناك ازدراء رسميا لهذه العلوم، نتيجة التوجه العلماني الذي يسيطر على الأنظمة السياسية الحاكمة في مختلف البلدان الإسلامية، والعربية منها خاصة، وهو التوجه الذي لا يعترف بأي دور للعلوم الإسلامية في واقع المسلمين، بل لا يسمح أن يكون لها دور في هذا الواقع، ولذلك يسعى إلى أن يجعل منها علوما تجريدية تدرس في إطار تاريخي بحت يطبعه التغني بأمجاد الماضي والتفاخر بمنجزات الأسلاف.

وهذا سِرُّ ما تُعامل به هذه العلوم من انتقاص وسخرية في الدوائر الرسمية وعلى ألسنة من يُسَمَّونَ بالمثقفين المرتبطين بهذه الدوائر، حيث يُسْتَغْرَبُ ويُستهجنُ القولُ بأن هذه العلوم لها علاقة بروح الأمة وكيانها وحاضرها ومستقبلها.

والحقُّ؛ أنَّ هذا الموقفَ لا ينتهي عند النظر إلى العلوم الإسلامية بحد ذاتها، وإنما يمتد ليمس كل ما ومن يمت إليها بصلة من قريب أو بعيد، وخيرُ أنموذج لذلك؛ الموقفُ الرسمي من علماء الشرع، حيث يتم التعامل معهم بحذر ويُراد منهم أن يكتفوا بتزكية ما يتخذه السياسيون من قرارات دون أن يكون لهم الحق في إبداء آرائهم أو التعبير عن حكم الشرع في هذه القرارات.

وهذا الموقف ليس جديدا، وإنما يمتد في عمق تاريخي طويل، يرجع إلى الظروف التاريخية التي شهدت الانفصال بين العلم والحكم في حياة المسلمين، حين أراد الحكام أن يستعملوا العلماء لتبرير مواقفهم البعيدة عن الشرع دون أن يتركوا لهؤلاء العلماء أي فرصة للتأثير في الحياة العامة أو في توجيه الجماهير. مما جعل العلماء ينغلقون على أنفسهم وينزوون بعيدا، مشتغلين ببحوثهم ودراساتهم التي بدأت تصطبغ بصبغة التجريد والبعد عن الواقع منذ ذلك الحين .

ولكي نكون واقعيين أكثر؛ هناك أنموذج حيٌّ عايشناه نحن في الجزائر، وما يزال يمثل عائقا كبيرا أمام المتخرجين من كليات العلوم الإسلامية، ويعتبر سببا مباشرا لقلة إقبال الطلبة الجدد عليها؛ ألا وهو إغلاق أبواب الكثير من الوظائف الرسمية الهامة أمام حاملي شهادات العلوم الإسلامية، لاسيما وظائف وزارة العدل، ومنها: القضاء، والتوثيق، والمحاماة، رغم أهليتهم العلمية لها. ولم يُترك لهم المجال إلا في نطاق ضيق وهو التربية والتعليم والإمامة في المساجد، وحتى في هذا المجال لم يسلموا من محاولات التضييق عليهم وإقصائهم.

**٧- تَشَوُّهُ الصورة:**

العلوم الإسلامية مشوهة الصورة عند قطاع كبير من المسلمين أنفسهم، خاصة أولئك الذين تأثروا بالثقافة الغربية ولا يعرفون من الثقافة الإسلامية إلا نُتَفًا يسيرة، حيث ينظرون إلى العلوم الإسلامية نظرة ريبة واتهام، ويعتبرون المشتغلين بدراستها أناسا منغلقين متعصبين يشكلون خطرا على غيرهم من الناس وغير مؤهلين لمسايرة الحياة ومواكبة الواقع. وهم في ذلك إنما ينطلقون مما يتلقونه من الغرب عن طريق إعلامه ومؤسساته.

ولعل ذلك سِرُّ إعراضِ كثيرٍ من الطلاب الملتحقين جددا بالجامعة عن التوجه إلى دراسة العلوم الإسلامية والتخصص فيها، ولعله كذلك سر رفض كثير من الآباء توجه أبنائهم إلى دراسة هذه العلوم وإصرارهم على أن يدرسوا العلوم المدنية.

وقد زاد من تشويه الصورة؛ كونُ العلوم الإسلامية انحسرت عن أن تكون من مكونات الثقافة الإسلامية العامة بفعل إخلاء المناهج الدراسية في مختلف مراحل التعليم منها، وحصرها في دائرة التخصص الضيق الذي لا يتابعه إلا قلة قليلة من الناس.

**ختام:**

هذه جملة من مظاهر أزمة العلوم الإسلامية في واقع الأمة المسلمة اليوم، وهي مظاهر ليست جديدة في الحقيقة، إذ هي قد ارتبطت بهذه العلوم منذ أن فقدت الأمة مكانتها في قيادة العالم، وتخلت عن واجبها في هداية غيرها من الأمم إلى الدين الحق.

وقد حاول بعض الباحثين المسلمين المعاصرين أن يقدموا حلولا جزئية، قصدوا منها إلى محاولة إعادة الاعتبار للعلوم الإسلامية وتفعيلها في واقع الأمة، غير أن تلك الحلول نفسَها تواجهها عراقيلُ اللامبالاةِ وعدمِ الاهتمام، إضافة إلى أنها لا تستحضر ارتباط أزمة العلوم الإسلامية بأزمة الأمة بوجه عام.

والمأمول أن تتكاتف وتتلاقى جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة وتتكامل على طريق العودة بها إلى مكانتها وتمكينها من أداء وظيفتها في الشهادة على الناس وقيادة ركب الحياة. وحينئذ ستتجدد العلوم الإسلامية وستؤدي وظيفتها التي وُجِدَتْ لأجلها، أما أن ننتظر من هذه العلوم أن تؤدي وظيفتها في ظل تعطل وظيفة الأمة وتوقف فعاليتها، فتلك أمنية قد تحلو في عالم الأحلام ولكنها لن تتحقق في عالم الواقع.